أسس التعايش في الإسلام

الدكتور نصار أسعد نصار

قسم علوم القرآن والحديث

كلية الشريعة

جامعة دمشق

الملخص

قَبِل الإسلام الآخر وأرسى قواعد للتعايش السلمي معه انطلاقاً من الوحدة الإنسانية وحرية الاختيار وتحقيق العدالة والمساواة بين الجميع دون تمييز ونشر السلم العالمي داخلياً وخارجياً والآخر كل من لا يدين بالإسلام ولا يرضاه حَكَماً في مختلف شؤون الحياة.

مقدمة:

إن السؤال الذي يطرح نفسه في هذه المسألة ما دواعي قبول الآخر والرضا بـه ؟ ومـا الأسـس الناظمة للتعايش معه ؟ مع أن الإسلام أعلن أنه الدين الحق الذي لا يقبل الله ﷻ غيره يوم الحساب. إن مبعث قبول الآخر أن دورة الحياة الدنيا تسير وفق سنن إلهية بدايتها الاستخلاف ومبناها حرية الاختيار مع وجود دواع للخير وللشر؛ ابتلاءً واختباراً مؤداها اختلاف التوجهات وتعدد الخيـارات مما يعني قبول الآخر وإن اختلف معنا أو خالفنا؛ لأن الاختلاف سنة من سـنن الله ﷻ يحكـم بـين عباده فيما اختلفوا فيه يوم القيامة مما يستدعي وجود قوانين بيِّنة يُحتكم إليها؛ لأن من نتاج دواعي الاختلاف تدافع الإرادات وصراع القوى والمبدأ الرئيس في الإسلام أن الصراع ليس أمراً حتمياً أو حكماً مقضياً بل الأساس فيه قبول الآخر والتعايش معه؛ لذلك وضع القرآن الكـريم أسـساً ناظمـة للعلاقة السلمية مع الآخر وفقاً للسنن الإلهية. وبالمقابل من السذاجة تصور عالم خالٍ من النزاعات يسوده الوئام ويعمه السلام بل الصراع والتدافع باقيان بقاء الخير والشر والحق والباطل والابتلاء والاختبار إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها وكانت البداية عند امتناع إبليس من الامتثال لأمر الله ﷻ بالسجود لآدم ﷺ وستكون النهاية عندما يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها.

وقد شهد العالم عبر تاريخه الطويل سلسلة حروب تدافعت فيها القوى وتـصارعت الإرادات ونـال العالم الإسلامي - وخاصة الجزء العربي منه - نصيباً أكبر؛ لما له من أهمية فهو ملتقى القارات ومنبع الثروات ومهد الحضارات ومهبط وحي الرسالات السماوية هذا من جهة؛ ومن جهة ثانيـة فالإسلام هو الدين الوحيد الذي حافظ على نقائه وأنه الأكثر جذباً وتأثيراً في الآخرين كل هذا أغرى الطامعين واستعدى قوى البغي لإرسال الجحافل لاستبعاد الناس ونهب الخيرات والإجهاز على الـدين الجديد ومعتنقيه.

وأكثر الجحافل عبر التاريخ - جاءت من الروم سواء قبل بعثة المـسيح ﷺ أو بعـد انتـسابهم للنصرانية والأمر كما قيل: لم تتنصر الروم ولكن تروَّمت النصرانية [1] ولا يقع الوزر على الـدين الذي جاء به عيسى ﷺ إنما على الأدعياء والمنتفعين الذين اتخذوا الدين وسيلة لتحقيق أطماعهم وإن كان الصراع قد انتهى مع أهل المشرق بعد عدة جولات إما باعتنـاق الإسـلام أو بمـسالمة معتنقيه فإن الاحتدام مع الغرب استمر عبر جولات كثيرة وحتى يومنا هذا وكـانوا البـادئين فـي

[1]- قال القاضي عبدالجبار (ت415 هـ) في كتابه تثبيت دلائل النبوة: لتعلم أن الروم ما تنـصرت ولا أجابـت المـسيح، بـل النصارى تروَّمت وارتدت عن دين المسيح وعطلت أصوله وفروعه وصارت إلى ديانة أعدائه.

تجييش الجيوش وشن الغارات والمسلمون لم يقاتلوهم إلا لرد لعدوان واقع أو متوقع مصداق ذلك ما رُوي عن رسول الله ﷺ: «فَارِسُ نَطْحَةٌ أَوْ نَطْحَتَانِ، ثُمَّ لاَ فَارِسَ بَعْدَ هَذَا أَبَدًا، وَالرُّومُ ذَاتُ الْقُرُونِ، كُلَّمَا هَلَكَ قَرْنٌ خَلْفَهُ قَرْنٌ، أَهْلُ صَبْرٍ، وَأَهْلُ بَحْرٍ، لِآخِرِ الدَّهْرِ، هُمْ أَصْحَابُكُمْ، مَا دَامَ فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ».[1] والعداء الآتي من الغرب لا يعني أن جميع من فيه أشرار بل فيه خيِّرون ومنصفون ولا أدل عليه مما سطره كتاب وباحثون أو صرح به زعماء وقادة فكر [2] أو صدر عن الشعوب خاصة في الحروب الأخيرة على أفغانستان والعراق وغزة بل بعضهم ضحى بنفسه من أجل الحقيقة هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن المسلمين يحملون جزءاً من الوزر؛ للتصرفات المسيئة التي تصدر عن بعضهم هذا من ناحية وللقصور الكبير في تعريف الآخر برسالة الإسلام من ناحية أخرى فالناس أعداء لما جهلوا وقد كشفت الأحداث الأخيرة مدى جهل الشعوب بالإسلام حتى ظنه بعضهم أنه رجل أو وحش... وسببه: بعد المسلمين عن روح الإسلام وتقاعسهم في التعريف بالإسلام [3] والأعمال المشينة الصادرة عن بعضهم فضلاً عن الدور الكبير الذي أداه أصحاب المصالح وأهل النفوذ عندهم من تكريس العداء وتشويه صورة الإسلام بالتهديد والوعيد وكان لوسائل الإعلام الدور الأبرز في ذلك. والإسلام منذ البداية دعا إلى الحوار مع الآخر خاصة أهل الكتاب والدعوة مفتوحة إلى يوم القيامة؛ لإقامة حلف فضول يتم التوافق فيه على مبادئ وأسس تكفل الحقوق وتحقق الأمن

---

[1]- مصنف ابن أبي شيبة (19688) (298/5). المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية باب إخباره ﷺ بأن فارس تنقرض وأن الروم تبقى فكان كذلك. (3837) (66/4) قال المُناوي: إسناده ضعيف التيسير بشرح الجامع الصغير (322/2). والحديث مرسل؛ لأن عبد الله بن مُحَيْرِيزٍ راوي الحديث تابعي (ت سنة 99 وقيل قبلها). تهذيب الكمال للمزي (106/16). سير أعلام النبلاء (94/4).

في قوله ﷻ:﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [لأنفال36] إشارة إلى استمرار عداوة الآخر؛ لدلالة الفعل المضارع: ﴿يُنفِقُونَ﴾ ودلالة قوله: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ وما بعده على الوقوع في المستقبل.

[2]- ليس كل المفكرين أو الزعماء يتبنون فكرة صراع الحضارات أو دعوى نهاية التاريخ والشواهد كثيرة في الماضي والحاضر.

[3]- أرسل الإمبراطور الياباني (ميكادو) في زمن وجود السيد جمال الدين الأفغاني بالآستانة (سنة 1891م) كتاباً إلى السلطان عبد الحميد يذكر فيه مودته ويقول: إن كلاً منَّا ملك شرق ومن مصلحة شعوبنا أن نتعارف ونتزاور وتكون الصلات بيننا قوية تجاه الدول والشعوب الغربية التي تنظر إلينا بعين واحدة إني أرى شعوب الإفرنج يرسلون إلى بلادنا دعاة لدينهم اعتماداً على الحرية الدينية عندنا ولا أراكم تفعلون ذلك فأنا أحب أن ترسلوا إلينا دعاة يدعون إلى دينكم الإسلامي ويمكن أن يكون هؤلاء صلة معنوية بيننا وبينكم. نقلاً من كتاب: جمال الدين الأفغاني لمحمود أبو رية (ص32) قال السيد وحيد الدين خان: وعندما وصلت رسالة ملك اليابان إلى عاصمة تركيا كان السيد جمال الدين الأفغاني والعلماء الآخرون موجودين هناك فأراهم السلطان عبد الحميد الثاني الرسالة ولكن أحداً منهم لم يعط الرسالة الاهتمام الجدير بها ورجع رسول الإمبراطور حاملاً رسالة من السلطان تحتوي على كلمات الامتنان الرسمية. (قضية البعث الإسلامي المنهج والشروط ص71) وحيد الدين خان.

دون أي شكل من أشكال التمييز لتجاوز الأحلاف المعاصرة سواء أكانت دولية أم إقليمية؛ لأنها لا تحقق إلا مصالح الأقوياء.

وهاهنا مسالتان:

الأولى: أن قَبول الإسلام للآخر والتعايش معه ينبغي أن لا تتجاوز العلاقة فيه الضوابط الشرعية فنهى الله ﷻ عن مولاة غير المسلمين قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة51] [1] حتى لو كانوا من الأهل والعشيرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة23].[2] وسبب عدم الموالاة اختلاف العقيدة؛ لأن الحب والبغض في الله فقط قال ﷺ: «أَنْ يُحِبَّ فِي اللهِ، وَأَنْ يَبْغَضَ فِي اللهِ».[3] والبغض ليس لذات الأشخاص إنما لأعمالهم قال تعالى على لسان لوط: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ [الشعراء 168].

الثانية: من الوهم الاعتقاد أن السلم الدائم يسود ربوع العالم فالصراع باق والتدافع مستمر بين الخير والشر والحق والباطل ما بقي في الأرض إنسان أو في الوجود شيطان: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة251]؛ لهذا ينبغي أن تبقى الأمة على أهبة الاستعداد في الجانبين الروحي والمادي فإنه لن تتحقق العزة إلا بالإيمان: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران139] ولن توجد منعة إلا بالإعداد: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[الأنفال60] بعد ذلك يحصل فالنصر: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال10].

---

[1]- قال الزمخشري: لا تتخذوهم أولياء تنصرونهم وتستنصرونهم وتؤاخونهم وتصافونهم وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين. ثم علل النهي بقوله:﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي إنما يوالي بعضهم بعضاً لاتحاد ملتهم واجتماعهم في الكفر. الكشاف (675/1).

[2] -قال الفخر الراوي: ذكر الله تعالى أن الانقطاع عن الآباء والأولاد والأخوان واجب بسبب الكفر وهو قوله : ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الكفر عَلَى الإيمان﴾. تفسير الرازي (17/16).

[3] - بداية الحديث: «ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حَلاوَةَ الإيمان وطَعْمَهُ أنْ يكون اللَّهُ أحبَّ إليه مما سواهُما...». النسائي عن أنس ﷺ كتاب الإيمان وشرائعه باب طعم الإيمان (4987) (94/8).

والهدف من هذه الدراسة بيان أسس التعايش الرئيسة وتأصيل قواعد التعامل مع الآخر من منظور إسلامي؛ وذلك بتحليل النصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية وعرض صور من الواقع التاريخي واستعراض شهادات بعض المنصفين. وقد اتبعت في البحث المنهج الوصفي والتحليلي.

الأساس الأول الوحدة الإنسانية:

تتصف دعوة الإسلام بالعالمية والإقرار بالوحدة الإنسانية فالله ﷻ في القرآن الكريم رب العالمين وليس رب العرب أو رب المسلمين فحسب كما عند اليهود لهم ربهم وللآخرين أربابهم [1] وهو إله الناس جميعاً: ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ [الناس3]. والقرآن الكريم هدى للناس:﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ﴾ [البقرة185] وخاطب الله ﷻ الناس جميعاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾[البقرة21] ونسبهم إلى أب واحد: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [لأعراف35] وأنهم خُلقوا من نفس واحدة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء1] ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأنعام 98] وأنه لا تفاضل إلا بالتقوى: قال ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى».[2]

وأن الرسولﷺ مبعوث للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء107]، ومرسل للناس كافة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ28].

والناس في المنظور الإسلامي شعوب وأمم خلقوا ليتعارفوا ويتآلفوا: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

---

[1] - قال عبد الأحد داود: اليهودية **دين ملي خاص**، وكل الأنبياء فيها أرسلوا إلى هذا الشعب نفسه وعملوا على تأييد ذلك الدين، نحن مضطرون إلى احترام شعب أحبه الله وأنعم عليه بهذا القدر، وعلى تعظيم شريعة موسى التي أنتجت وأنجبت هذا المقدار من الأنبياء الصالحين. وكل أنبياء بني إسرائيل كانوا قد أخبروا بأن سيظهر (ملكوت الله) و(الدين العام) ومهما كانوا يدعون طول مدة بقاء شريعة موسى، أن (يهوه: الله) إله إسرائيل فحسب، فإنهم كانوا يشعرون بأنه **سيأتي يوم فيه يتعرف الله إلى جميع الأمم**، وأنه سيجمعهم ويجعلهم ملة واحدة. وهاهم أولاء لا يزالون **ينتظرون أن يأتي شخص من نسل إبراهيم** ﷺ ليشكل ذلك الملكوت واليهود لما لم **يجدوا الصفات التي ينتظرونها في المسيح** ﷺ لم يقتنعوا بأنه هو المسيح الحقيقي المبشر به ولذلك رفضوه؛ لاعتقادهم أن شريعته التي ستكون ملكوت الله هي شريعة موسى مع قليل من التحوير، وأن مركزه أورشليم وأن يومه المقدس يوم السبت. الإنجيل والصليب (ص 147).

[2]- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ خُطْبَةَ الْوَدَاعِ، فَقَالَ... المسند (23536) (411/5) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد (586/3). شعب الإيمان (**4774**)(132/7).

خَبِيرٌ﴾[الحجرات13].[1] منهم المؤمن والكافر والبَر والفاجر والصالح والطالح: قَالَ ابْنُ عُمَرَ﵄ خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَقَالَ:«أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عَيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلَانِ: مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ كَرِيمٌ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ مَهِينٌ، وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ».[2]

والإنسان خليفة الله ﷻ في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة30] عليه عمارتها: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود61] عبر أجيال متعاقبة: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾[النمل62] [3] مما استدعى استمرار الجنس البشري فخلقهم الله ﷻ من نفس واحدة وجعل منها زوجها: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[الزمر6] الذكر والأنثى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾[النجم45]؛ ليحصل السكن: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[الأعراف189] وتنشأ المودة: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم21].

وبجانب وحدة الأصول والغايات اختلفت الألسنة والألوان: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم22] إلا أنها ليست ميدان تفاضل أو سبب تمايز إنما ميدانه التقوى والعمل الصالح: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات13].

وأقرَّ الإسلام مبدأ تعدد الشرائع عبر التاريخ الإنساني: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ (المائدة48) لكن مع وحدة الدين: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[الشورى13]. والإيمان بكل

---

[1]- يا أيها الناس: يا أيها المختلفون أجناساً وألواناً، المتفرقون شعوباً وقبائل إنكم من أصل واحد. فلا تختلفوا ولا تتفرقوا ولا تتخاصموا ولا تذهبوا بدداً. في ظلال القرآن (3/7).

عَنْ أَبِي نَضْرَةَ حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ **وَاحِدٌ** أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى». المسند مسند الأنصار (23489)(474/38).

[2]- جامع الترمذي كتاب فَضَائِلِ الْقُرْآنِ بَابٌ وَمِنْ سُورَةِ الْحُجُرَاتِ وقال: حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لاَ نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ دِينَارٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ إِلاَّ مِنْ هَذَا الوَجْهِ. وَعَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرٍ يُضَعَّفُ، ضَعَّفَهُ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ وَغَيْرُهُ، وَهُوَ وَالِدُ عَلِيِّ بْنِ الْمَدِينِيِّ. (3270) (389/5). شعب الإيمان (4767)(127/7).

[3]- استخلف الله ﷻ جنس البشر في الأرض أولاً. ثم جعلهم قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل يخلف بعضهم بعضاً في مملكة الأرض التي جعلهم فيها خلفاء والله فطرهم وفق النواميس التي تسمح بوجودهم في الأرض وزودهم بالطاقات والاستعدادات التي تقدرهم على الخلافة فيها وتعدهم لهذه المهمة الكبرى. في ظلال القرآن (392/5).

الرسل: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة285].

والنبيّون إخوة شرائعهم شتى ودينهم واحد: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ».[1] تشكل دعوتهم عقداً متكاملاً بدايته آدم ﷺ ونهايته خاتم النبيين: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ قَالَ فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ».[2]

والإنسان مُكرَّم بغض النظر عن دينه أو معتقده أو جنسه... حياً كان أو ميّتاً: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الاسراء70]. قَالَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي لَيْلَى: «كَانَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ قَاعِدَيْنِ بِالْقَادِسِيَّةِ فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا بِجَنَازَةٍ فَقَامَا فَقِيلَ لَهُمَا إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ أَيْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ فَقَالَا: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ فَقَامَ فَقِيلَ لَهُ إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ فَقَالَ أَلَيْسَتْ نَفْسًا».[3]

الأساس الثاني حرية الاعتقاد:

إن العنوان الرئيس في العقيدة: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة256] والاختلاف سنة من سنن الله ﷻ في خلقه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود118 -119] ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً: ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ الرعد31] ولجعلهم على طريقة واحدة: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا

---

[1]- وتتمته: «وَإِنَّهُ نَازِلٌ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ رَجُلًا مَرْبُوعاً إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَصَّرَانِ كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ فَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِسْلَامَ وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمَسِيحَ الدَّجَّا وَتَقَعُ الْأَمَنَةُ عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى تَرْتَعَ الْأُسُودُ مَعَ الْإِبِلِ وَالنِّمَارُ مَعَ الْبَقَرِ وَالذِّئَابُ مَعَ الْغَنَمِ وَيَلْعَبَ الصِّبْيَانُ بِالْحَيَّاتِ لَا تَضُرُّهُمْ فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ يُتَوَفَّى وَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ». المسند واللفظ له (9270) (153/15). البخاري كتاب الأنبياء بَاب قَوْلِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ (3259)(1270/3).

[2]- البخاري كتاب بدء الخلق بَاب خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ (3342)(1300/3). مسلم كتاب الفضائل باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين (2286) (1790/4).

[3]- البخاري كتاب الجنائز بَابُ مَنْ قَامَ لِجَنَازَةِ يَهُودِيٍّ (1250) (441/1) مسلم كتاب الجنائز باب القيام للجنازة (931) (642/2).

يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[هود118]. والقاعدة الكبرى في هذا: ﴿قُلْ لا تُسْأَلونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ25].[1]

وإن من دواعي حرية الاعتقاد التكليف الإلهي المبني على الابتلاء والاختبار مما يعني حرية اختيار منهج أو سلوك طريق بعد نصب الأدلة وإرسال الرسل: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد10] مما ينتج عنه تعدد الاتجاهات وتنوع الثقافات:﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[البقرة148]. والغاية من التعدد والتنوع إكمال دورة الحياة الدنيا المبنية على التسابق لتحقيق منافع دنيوية وأخروية والتسابق نفسه محل للاختبار والامتحان: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة48].

والإسلام بما يمثله من نظام عيش ودستور حياة اختاره الباري ﷻ ليكون المنهج الرَّباني للبشرية جمعاء منذ ختم النبوة إلى أن يرث الأرض ومن عليها لا تخالف فروعه أصوله ولا تنقض تطبيقاته مبادئه وانطلاقاً من هذا المبدأ وتطبيقاً له لم يجبر المسلمون أحداً على اعتناق الإسلام مع أن فيه إعلاناً صريحاً بأنه الدين الناسخ لما سبقه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران19] الذي لا يقبل الله ﷻ غيره: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران85]، وأن محمد بن عبدالله ﷺ خاتم النَّبِيِّينَ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [الأحزاب40]. وشريعته هي الحاكمة: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾[المائدة48]. ومع هذا ترك الإسلام حرية الاختيار للإنسان؛ لتتحقق حقيقة الاختبار: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف29] ويوم القيامة: ﴿للَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج 69].

والرسول ﷺ إنما بُعث بشيراً ونذيراً: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف188] وليس له إكراه أحد على الإسلام: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ

[1] - قال الفخر الرازي: أضاف الإجرام إلى النفس وقال في حقهم: ﴿وَلاَ نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ذكر بلفظ العمل لئلا يحصل الإغضاب المانع من الفهم وقوله: ﴿لاَّ تُسْئَلُونَ ﴾ ﴿وَلاَ نُسْئَلُ﴾ زيادة حث على النظر وذلك لأن كل أحد إذا كان مؤاخذاً بجرمه فإذا احترز نجا، ولو كان البريء يؤاخذ بالجرم لما كفى النظر. التفسير الكبير (223/25).

حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[يونس99] [1] أو عليه وزر من أعرض: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ ﴾ [الشورى48]؛ ولهذا منع الإسلام سبَّ ما يعبده الآخرون أو يعتقدونه؛ لأنه ليس من خُلق المسلم السب أو اللعن هذا من جهة وكي لا يكون ذريعة لسب الله تعالى من جهة أخرى: ﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام108].[2] واعترف بدور عبادة الآخرين: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ﴾[الحج40] [3] وحافظ عليها: أرسل خالد بن الوليد إلى أهل دمشق: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل دمشق، إني أمنتهم على دمائهم وأموالهم وكنائسهم ألا تسكن ولا تهدم، شهد يزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة... وكتب في رجب من سنة أربع عشرة.[4]

حق العيش للجميع:

تقتضي حرية العقيدة منح حق العيش للجميع دون تمييز بسبب دين أو لون أو عرق وقد نعم غير المسلمين في ظل الدولة الإسلامية بالأمن ومنحوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وذرياتهم وسُمح لهم ممارسة الطقوس وإقامة الشعائر وقد حدث هذا منذ اللحظة التي أُعلن فيها قيام دولة الإسلام في المدينة المنورة واستمر إلى يومنا هذا فرسول الله ﷺ بعد أن وطأت قدماه المدينة قام بثلاثة

---

[1]- قال (بيجي رودريك): أذن الإسلام لرسوله ﷺ بالجهاد لرفع الظلم والاضطهاد؛ ولإزالة العقبات التي تقف في وجه الدعوة إلى الإسلام، **التي لا تكره أحداً** على الدخول في هذا الدين، وإنما تدعو الناس إليه وتترك لهم الحرية الكاملة للاختيار إن الإسلام هو دين السلام مع الله والسلام مع الناس جميعاً. وما إن يدخل الإسلام بلداً من البلدان المفتوحة حتى يقبل أهلها جميعاً على اعتناقه ويعاملون معاملة الفاتحين سواء بسواء، ومن احتفظ منهم بدينه لقي أكرم معاملة..تعدُّ قوانين الحرب في الإسلام أكثر القوانين إنسانية ورأفة، فهي تضمن السلامة التامة للنساء والولدان والشيوخ وجميع غير المحاربين. قالوا عن الإسلام د. عماد الدين خليل، (ص 287).

[2]- قال السُّدي: لا تسبوا الأصنام فيسبوا من أمركم بما أنتم عليه من عيبها وقيل لا تسبوا الأصنام فيحملهم الغيظ والجهل على أن يسبوا من تعبدون كما سببتم من يعبدون. أحكام القرآن للجصاص (170/4).

[3]-- (لَهُدِّمَتْ) لخربت باستيلاء المشركين على أهل الملل، صَوامعُ للرهبان وهي الأديرة، (وَبِيَعٌ) كنائس للنصارى، (وَصَلَواتٌ) كنائس اليهود، سميت بها لأنها يصلى فيها، وقيل : أصلها: صلوتا بالعبرانية، فعرّبت (وَمَساجِدُ) معابد للمسلمين. (يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً)، يذكر في المواضع الأربعة المذكورة، وتنقطع العبادة بخرابها. التفسير المنير (225/17). وانظر: جامع البيان في تأويل القرآن (650/18)

وتفسير ابن كثير (436/5).

[4]- مختصر تاريخ دمشق (71/1).

أعمال نظم فيها سير الحياة للدولة الناشئة وهي: تأسيس المسجد النبوي؛ ليكون داراً للحكومة ومعهداً للتعليم والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار؛ لصهر الفريقين في بوتقة الإيمان ووضع دستور وهو وثيقة المدينة؛ لتقنيين العلاقة بين رعايا الدولة من مسلمين ويهود في مناخ تسوده حرية [1] وتظلله المعاملة العادلة.[2]

كما كتب رسول الله ﷺ عهداً مماثلاً لوفد نصارى نجران بعد أن أقاموا في المسجد النبوي وأذن لهم رسول الله ﷺ أن يصلوا فيه صلاة عيد الفصح.[3] كذلك كتب الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ عهد أمان لأهل القدس.[4] ولما استقدم المأمون من الري (يزدان بخت) زعيم المُناوية لمناظرة بعض المتكلمين المسلمين وبعد أن أُفحم دعاه المأمون لاعتناق الإسلام فأجاب: نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة، وقولك مقبول، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم. فقال المأمون أجل.[5]

---

[1]- مما جاء في الوثيقة: هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس... وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم... وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم. المصباح المضيء في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض (144/1).

[2]- لا يمكن وصف الدولة الإسلامية بأنها دولة دينية بالمفهوم الغربي (ثيوقراطية) يحكمها رجال دين بموجب حق إلهي بل دولة يحكمها من تختاره الأمة ليطبق شرع الله ﷻ على رعايا الدولة مع صون حقوق الرعايا غير المسلمين والمحافظة على خصوصياتهم فلا يطبق عليهم ما له صلة بالعقيدة أو العبادة إنما يطبق عليهم ما يدخل تحت القانون العام.

[3]- حضر وفد نصارى نجران إلى المدينة سنة (10 للهجرة) جاء فيه: لنجران وحاشيتها وسائر من ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض جوار الله وذمة محمد رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وبيعهم وكل ما تحت أيدهم... أن أحمي جانبهم وأذب عنهم وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم ومواضع الرهبان ومواطن السياح وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا بما أحفظ به نفسي وخاصتي وأهل الإسلام من ملتي.. لأني أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين وعلى المسلمين ما عليهم ... حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم. فقاموا يصلون في المسجد نحو المشرق فقال، رسول الله ﷺ دعوهم. مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة جمع وتحقيق د. محمد حميد الله آبادي (ص17). طبقات ابن سعد (357/1). فتوح البلدان. (78/1).

[4]- مما جاء فيه: هذا ما أعطى عبدُ الله عمرُ أميرُ المؤمنين، أهلَ إيليا من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيِّزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم... ومن أقام منهم فهو آمن... وعلى ما في هذا الكتاب عهدُ الله، وذمّةُ رسوله، وذمّةُ الخلفاء، وذمّةُ المؤمنين. تاريخ الطبري (105/3).

[5]- الفهرست (401/1).

التعايش بين النظرية والتطبيق:

في الوقت الذي رفع فيه الإسلام شعار قبول الآخر والتعايش معه نظرياً وطبقه المسلمون عملياً فإن شعارات الآخرين تسقط عند أول اختبار وما فعله الأسبان بالمسلمين بعد سقوط الأندلس [1] وما جرى في الحروب الصليبية [2] ومحاكم التفتيش [3] وما يجري الآن من حرب ضد الإسلام ورموزه وما مارسوه من اضطهاد ديني وسفك دماء لمخالفيهم في المذهب شاهد عيان على زيف دعاويهم وسقوط شعاراتهم فأقباط مصر كانوا يعيشون تحت الحكم الروماني في ذل مرير مع اشتراكهم في الدين بسبب اختلافهم المذهبي فالأقباط يعتنقون المذهب الأرثوذكسي والرومان المذهب الكاثوليكي فكان الرومان يعذبون الأقباط ويقتلون رجال الدين منهم فكنيسة "مارجريس" كانت العبادة تمارس

---

[1]- قالت زيجريد هونكه: إن إسبانيا تحت حكم العرب مثال بيّن أي على التعايش - أنه بينما كانت أوروبا الكاثوليكية دون جبال البرانس تقضي قضاءً مبرماً على كلِّ دينٍ آخر يجرؤ على الظهور إلى جانب دينها الكاثوليكي بصفته الدين الأوحد للخلاص؛ وذلك باتباعها سياسة التفرقة الصارمة إزاءَ غير النصارى، نرى أن النصرانية لم تُستَأصل ولم تَضعْ تحت حكم العرب... كذلك اليهودية التي دأبت الكنيسة في تحميلها وزر موت المسيح... تمتَّعت في ظلال الحكم العربي... أول مرة بعد الشتات بمطلق الحرية إلى أن استعادت النصرانية الحكم في إسبانيا وطردت اليهود. الله ليس كذلك (ص52).

[2]- قال الذهبي: وقد كان لتسامح المجاهدين وعلى رأسهم صلاح الدين، وأخلاقهم الفاضلة عندما فتحوا بيت المقدس أثر كبير في نفوس أعدائهم، فقد امتدحهم مؤرخوهم، وأثنوا عليهم ثناء طيبا، فها هو (رنسمان) يقول: الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية، بينما كان الفرنج منذ ثمان وثمانين سنة يخوضون في دماء ضحاياهم، لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه، إذ صار رجال الشرطة بناء على أمر صلاح الدين يطوفون الشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين.

ملكنا فكان العفو منا سجية * فلما ملكتم سال بالدم أبطح

سير أعلام النبلاء (179/19).

قال (يورجا): ابتدأ الصليبيون سيرهم على بيت المقدس بأسوأ طالع، فكان فريق من الحجاج يسفكون الدماء في القصور التي استولوا عليها. وقد أسرفوا في القسوة فكانوا يبقرون البطون. ويبحثون عن الدنانير في الأمعاء! أما صلاح الدين، فلما استرد بيت المقدس بذل الأمان للصليبيين، ووفى لهم بجميع عهوده، وجاد المسلمون على أعدائهم ووطأوهم مهاد رأفتهم ، حتى إن الملك العادل، شقيق السلطان، أطلق ألف رقيق من الأسرى، ومنّ على جميع الأرمن، وأذن للبطريرك بحمل الصليب وزينة الكنيسة، وأبيح للأميرات والملكة بزيارة أزواجهن. في ظلال القرآن (6/4).

[3]- استمرت محاكم التفتيش قرابة ثلاثة تأمر بالتقتيل والتعذيب والإكراه. قالت السيدة زيجريد: إذ لم يكن انتصار النصرانية يعني سوى طرد اليهود والمسلمين واضطهادهم وإكراههم على التنصير واستئناف نشاط محاكم التفتيش التي قامت بتعقب كل من يتخذ سوى الكاثوليكية ديناً، والحرق العلني في احتفالات رسمية تحفُّها الطقوس والشعائر الكنسية لكلِّ من اعتنق الإسلام أو اليهودية. وما إن دالت دولة العرب في إسبانيا حتى اندثرت معهم أزهى وأخصب حضارة ملكتها أوروبا في العصور الوسطى، وغرقت في بحر من الرعب وأتت فيه أمواج التعصب الديني على كل شيء وابتلعته ابتلاعاً. ولم تلغ محاكم التفتيش إلا في عام(1834م). الله ليس كذلك (ص45).

علناً حسب المذهب الكاثوليكي وخفية في السراديب حسب المذهب الأرثوذكسي؛ فرقاً من سياط الرومان.[1]

وكان من نتائج قبول الآخر والمعاملة الحسنة أن كثيراً من أهل البلاد المفتوحة فضلوا المسلمين على أهل دينهم أو ملتهم والشواهد كثيرة من ذلك أنه لما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن، وعسكر أبو عبيدة في بلدة (فحل) كتب الأهالي النصارى في تلك البلاد إلى العرب الفاتحين يقولون: يا معشر المسلمين! أنتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا، وأنتم أوْفى لنا وأرأف بنا، وأكفُّ عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا.[2]

ولما جمع هرقل للمسلمين الجموع في اليرموك رد أبو عبيدة على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا: شُغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم. فقال أهل حمص: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم. ونهض اليهود فقالوا: والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نُغلب ونُجهد. فأغلقوا الأبواب وحرسوها. وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود، وقالوا: إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه، وإلا فإنا على أمرنا ما بقى للمسلمين عدد.[3]

والفضل ما شهد به الأعداء؛ حيث اعترف المنصفون بسماحة الإسلام من ذلك شهادة المفكر الفرنسي (غوستاف لوبون): ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب.[4] وما قاله المستشرق ول

---

[1]- واقعنا المعاصر. محمد قطب (69). وقد شهد بزيف تلك الشعارات الأسقف (ميخائيل السرياني) قال: لم يسمح الإمبراطور الروماني لكنيستنا بالظهور ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التي نُهبت ولهذا فقد انتقم الرب منه لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا بقسوة بالغة واتهمونا دون شفقة ولهذا جاء إلينا أبناء إسماعيل لينقذونا من أذى الرومان وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية وعشنا في سلام. الإسلام في عيون غربية د.محمد عمارة (ص17) نقلاً من كتاب تاريخ مصر في العصر البيزنطي د. صبري أبو الخير سليم. (ص62).

[2]- تاريخ دمشق لابن عساكر (130/41).

[3]- فتوح البلدان (162/1).

[4]- وقال أيضاً: وإن العرب هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين فهم الذين علّموا الشعوب النصرانية وإن شئت فقل حاولوا أن يعلموها التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسان ولقد كانت أخلاق المسلمين في أدوار الإسلام الأولى أرقى كثيراً من أخلاق أمم الأرض قاطبة... والسهولة العجيبة التي ينتشر بها القرآن في العالم... فالمسلم أينما مر ترك خلفه دينه وبلغ عدد أشياع النبي ملايين كثيرة في البلاد التي دخلها العرب بقصد التجارة لا فاتحين كبعض أجزاء الصين وأفريقية الوسطى وروسية وتم اعتناق هذه الملايين للإسلام طوعاً لا كرهاً ولم يسمع أن الضرورة قضت بإرسال جيوش مع هؤلاء التجار العرب المسلمين لمساعدتهم ويتسع نطاق الإسلام بعد أن يقيمه هؤلاء في أي مكان كان. حضارة العرب (26 73-276 - 430 566-579).

ديورانت: لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام.[1] وقالت السيدة زيجريد هونكه: إن الإسلام هو لا شك أعظم ديانة على ظهر على الأرض سماحة وإنصافاً نقولها بلا تحيز ودون أن نسمح للأحكام الظالمة أن تلطخه بالسواد إذا ما نحيّنا هذه المغالطات التاريخية الآثمة في حقه وإن علينا أن نتقبل هذا الشريك والصديق مع ضمان حقه في أن يكون كما هو.[2]

الأساس الثالث العدل والحق:

جاء الإسلام لإحقاق الحق وإقامة العدل مع الأصدقاء والأعداء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[المائدة8] حتى في ميدان المعركة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة190]. والله ﷻ عاتب الرسول ﷺ حين دافع عن منافقين ظاناً إياهم صادقين في اعتقادهم

---

[1]- قصة الحضارة، ول ديورانت، دار الجيل، بيروت، (130/13). وهذا عكس ما فعله الصليبيون عند احتلالهم العالم الإسلامي وصف شاهد عيان إفرنجي المذبحة التي أحدثها الصليبيون بالقدس بقوله: شاهدنا أشياء عجيبة إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم رمياً بالسهام أو أرغموا على أن يلقوا بأنفسهم من فوق الأبراج .. وكنا نرى في الشوارع أكوام الرؤوس والأيدي والأقدام. قصة الحضارة (25/4).

[2]- الله ليس كذلك (ص101). وعقدت السيدة زيجريد هونكه مقارنة بين سماحة المسلمين وغدر الصليبيين قالت: نذكر هنا الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد، الذي نشأ في الغرب تنشئة الملوك الشرفاء. فقد مرغ تلك السمعة الطيبة في العار، ودأب في تلويثها بشكل مخزٍ دائماً أبداً، فبينما **أقسم بشرفه لثلاثة آلاف أسير عربي أنَّ حياتهم آمنة** فإذا هو فجأة منقلب المزاج، فيأمر بذبحهم جميعاً، ويحذو قائد الجيش الفرنسي حذوه سريعاً. وهكذا لطخ بفعلته النكراء وسفكه تلك الدماء سمعتَه إلى الأبد، وضيَّع ثمرة انتصاره في أذيال الخزي والعار. وعلى العكس من هذا عرفنا صلاح الدين الذي أخزى قوَّاد جيوش النصارى، فلم ينتقم قطُّ من أسراهم النصارى الذين كانوا تحت رحمته، رداً على خيانتهم وغدرهم وفظاعتهم الوحشية التي ليس لها حدٌّ. ولقد أخزاهم صلاح الدين مرةً أخرى حين تمكَّن من استرداد بيت المقدس، التي كان الصليبيون قد انتزعوها من قبلُ بعد أن سفكوا دماء أهلها في مذبحة لا تدانيها مذبحةٌ وحشية وقسوةً، فإنَّه لم يسفك دمَ سكَّانها من النصارى انتقاماً لسفك دم المسلمين، بل إنه شملهم بمروءته وأسبغ عليهم من جوده ورحمته، ضارباً المثل في التخلُّقِ بروح الفروسية العالية. على العكس من المسلمين لم تعرف الفروسية النصرانية أي التزامٍ خلقي يفرض عليها أن تسمح لأولئك (الكفار) بممارسة حقوقهم الطبيعية الأمر الذي يمليه حق الجوار ومحبته كما شعرت تلك الفروسية النصرانية بأنَّه ليس لزاماً عليها أن تلتزم بكلمة الشرف التي تعطيها لغير النصراني. وحينما سفك فرسان الحملة الصليبية عام(1204م) دم إخوانهم من النصارى في بيزنطة أخذ (نيكتاس أكومينا توس) يبكي مصارعهم قائلاً: بل إن محاربي المسلمين الأعداء أنفسهم رحماء طيبون قياساً إلى أولئك القوم الذين يحملون صلب المسيح على ظهورهم. والحقُّ أنَّ الفروق الحاسمة مع أتباع الملَّة الأخرى راسخةٌ في تفهُّم كلٍّ من الإسلام والنصرانية لطبيعته وفي اختلاف تفهُّم كلٍّ منهما للبشر. المرجع نفسه (ص 34 -35).

وأقوالهم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ [النساء105].[1]

ولم يُعمم الإسلام الحكم فلم ينظر إلى الآخر نظرة واحدة أو يضع الجميع في سلة واحدة: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[آل عمران113] ففيهم المؤمن: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران110]. وبعضهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة83] ومنهم المؤتمن: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً﴾[آل عمران75]. والمقتصد: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة66] وبالمقابل: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة109].

سمات العدالة في الإسلام:

تتسم العدالة التي دعا إليها الإسلام وأمر بتطبيقها بالثبات والشمول. فلا تخضع لاعتبارات مصلحية أو ظروف آنية بل هي دائمة لا تتغير ولا تتبدل فأمر الله ﷻ بالوفاء بالعهود حتى مع الأعداء: قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[النساء 58].[2] وأعاد الرسول ﷺ أبا جندل إلى المشركين وفاء بما عاهد عليه المشركين.[3] فلا يجوز الغدر أو

---

[1]- هذه الحادثة بالغة الدلالة على مدى ثبات المبادئ التي جاء بها الإسلام وعدم التوائها أو خضوعها للظروف ففي حين كان اليهود يتربصون بنبي الإسلام ﷺ وأهله الدوائر؛ لأن نبي آخر الزمان لم يكن منهم حيث أثاروا الفتن وحاكوا المؤامرات... وفي غمرة هذا الجو المتوتر سرق أحد المنافقين متاعاً وكي يتخلص من جريرة فعله ويوقع فيها غيره أخفاه عند يهودي وعناصر الجريمة مكتملة متاع يعثر عليه في بيت الرجل قومه يجاهرون بالعداء للإسلام مع شهادة رجل ظن الرسول ﷺ أنه مسلم حقيقة فليس من سبيل أمام قاض اكتملت البينات عنده إلا أن يحكم وفقها وهكذا فعل رسول الله ﷺ؛ لأنه بشر لا يعلم الغيب فنزل الوحي ليبيّن براءة اليهودي. انظر واقعنا المعاصر. محمد قطب. (67).

[2] - يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ﴾ قد عاهدتهم ﴿خِيَانَةً﴾أي: نقضًا لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود، ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: عهدهم ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك. تفسير ابن كثير (79/4).

[3] - قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ ﷺ «صَالَحَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ عَلَى أَنَّ مَنْ أَتَاهُ مِنْ الْمُشْرِكِينَ رَدَّهُ إِلَيْهِمْ وَمَنْ أَتَاهُمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَرُدُّوهُ وَعَلَى أَنْ يَدْخُلَهَا مِنْ قَابِلٍ وَيُقِيمَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَلَا يَدْخُلَهَا إِلَّا بِجُلُبَّانِ السِّلَاحِ السَّيْفِ وَالْقَوْسِ وَنَحْوِهِ فَجَاءَ أَبُو جَنْدَلٍ يَحْجُلُ فِي قُيُودِهِ فَرَدَّهُ إِلَيْهِمْ». البخاري كتَابُ الصُّلْحِ بَاب الصُّلْحِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ (2553)(961/2).

الخيانة حتى في ميدان المعركة قال سُلَيْم بن عَامِر: كان مُعَاوِيَةُ يَسِيرُ بِأَرْضِ الرُّومِ وكان بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ أَمَدٌ فَأَرَادَ أن يَدْنُوَ منهم فإذا انْقَضَى الأَمَدُ غَزَاهُمْ فإذا شَيْخٌ على دَابَّةٍ يقول الله أَكْبَرُ اللهِ أَكْبَرُ وَفَاءٌ لاَ غَدْرٌ إن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «من كان بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلاَ يَحُلَّنَّ عُقْدَةً وَلاَ يَشُدَّهَا حتى ينقضي أَمَدُهَا أو يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ على سَوَاءٍ». فَبَلَغَ ذلك مُعَاوِيَةَ فَرَجَعَ وإذا الشَّيْخُ عَمْرُو بن عَبَسَةَ.[1] والغاية لا تبرر الوسيلة.[2] فلا يجوز مقاتلة قوم إلا بعد دعوتهم إلى إحدى ثلاث خلال.[3] ولا يُقبل التهاون أو التعدي في تطبيق تلك الخلال.[4]

وهي شاملة للجميع دون تمييز بسبب دين أو عرق أو لون: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[النساء58] قال ميمون بن مهران: ثلاثة يؤدين إلى البر والفاجر: الأمانة والعهد وصلة الرحم.[5] وقصة زَيْدِ بن سَعْنَةَ دليل بيِّن على العدالة مع رعايا الدولة غير المسلمين وحسن معاملتهم.[6] .

---

[1] - المسند (17056) (111/4) الترمذي وقال حسن صحيح كتاب السير باب ما جاء في الغدر. (1506). سنن أبي داود كتاب الجهاد باب الإمام يكون بينه وبين العدو (2387).

[2]- خير شاهد على ذلك ما حدث مع أهل سمرقند؛ حيث شكوا أن قتيبة قائد جيش المسلمين غدر بهم وظلمهم وأخذ بلادهم غيلة فحين بلغ الخبر عمر بن عبد العزيز ﷺ أمر قاضي المسلمين في النظر بالقضية فحكم القاضي بخروج جيش المسلمين لمخالفته أدبيات الحرب وأخلاقياته فما كان من أهل سمرقند بعد أن لا قوا الأمان والأمن من جند المسلمين إلا أن يقروهم على ما هم عليه. تاريخ الرسل والملوك (81/4) الكامل في التاريخ (370/2).

[3]- عَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ أَنَّ جَيْشًا مِنْ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ كَانَ أَمِيرَهُمْ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ حَاصَرُوا قَصْرًا مِنْ قُصُورِ فَارِسَ فَقَالُوا يَا أَبَا عَبْدِاللَّهِ أَلَا نَنْهَدُ إِلَيْهِمْ قَالَ: **دَعُونِي أَدْعُهُمْ كَمَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْعُوهُمْ** فَأَتَاهُمْ سَلْمَانُ فَقَالَ لَهُمْ إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ فَارِسِيٌّ تَرَوْنَ الْعَرَبَ يُطِيعُونَنِي فَإِنْ أَسْلَمْتُمْ فَلَكُمْ مِثْلُ الَّذِي لَنَا وَعَلَيْكُمْ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَا وَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا دِينَكُمْ تَرَكْنَاكُمْ عَلَيْهِ وَأَعْطُونَا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَأَنْتُمْ صَاغِرُونَ....وَإِنْ أَبَيْتُمْ نَابَذْنَاكُمْ عَلَى سَوَاءٍ قَالُوا مَا نَحْنُ بِالَّذِي نُعْطِي الْجِزْيَةَ وَلَكِنَّا نُقَاتِلُكُمْ.... فَدَعَاهُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَى مِثْلِ هَذَا ثُمَّ قَالَ انْهَدُوا إِلَيْهِمْ قَالَ فَنَهَدْنَا إِلَيْهِمْ فَفَتَحْنَا ذَلِكَ الْقَصْرَ. الترمذي كتاب السير بَاب مَا جَاءَ فِي الدَّعْوَةِ قَبْلَ الْقِتَالِ وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ (1468). المسند (22610).

[4]- بخلاف ما فعله الروم سابقاً وما فعله أحفادهم في العصر الحاضر مما يندى له جبين من فيه أدنى حياء لكن القوم فقدوا بوصلة الرشد في القيم والمبادئ.

5- مفاتيح الغيب **(112/10).**

6- قَالَ عَبْدُاللَّهِ بنُ سَلام: إِنَّ اللَّه لَمَّا أَرَادَ هُدَى زَيْدِ بن سَعْنَةَ، قَالَ زَيْدٌ: مَا مِنْ عَلامَاتِ النُّبُوَّةِ شَيْءٌ إلا وَقَدْ عَرَفْتُهَا في وَجْهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، حِينَ نَظَرْتُ إِلَيْهِ إلا اثْنَتَيْنِ لَمْ أَخْبُرْهُمَا مِنْهُ، يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ وَلا تَزِيدُ شِدَّةُ الْجَهْلِ عَلَيْهِ إلا حِلْمًا، فَكُنْتُ أَلْطُفُ لَهُ لأَنْ أُخَالِطَهُ، فَأَعْرِفَ حِلْمَهُ مِنْ جَهْلِه. قَالَ زَيْدُ بن سَعْنَةَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَوْمًا مِنَ الْحُجُرَاتِ وَمَعَهُ عَلِيُّ بن أَبِي طَالِب ﷺ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَتِه كَالْبَدَوِيِّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، إِنَّ بِصُرَى قَرْيَةَ بني فُلان قَدْ أَسْلَمُوا، وَدَخَلُوا في الإِسْلامِ، وَكُنْتُ حَدَّثْتُهُمْ إِنْ أَسْلَمُوا أَتَاهُمُ الرِّزْقُ رَغَدًا، وَقَدْ أَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ وَشِدَّةٌ وَقُحُوطٌ مِنَ الْغَيْثِ، فَأَنَا أَخْشَى يَا رَسُولَ اللَّه أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الإِسْلامِ طَمَعًا كَمَا دَخَلُوا فيه طَمَعًا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُرْسِلَ إِلَيْهِمْ بِشَيْءٍ تُعِينُهُمْ بِه فَعَلْتَ، فَنَظَرَ إِلَى رَجُلٍ إِلَى جَانِبِه أُرَاهُ عَلِيًّا ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، مَا بَقِيَ مِنْهُ شَيْءٌ، قَالَ زَيْدُ بن سَعْنَةَ : فَدَنَوْتُ إِلَيْه، فَقُلْتُ: يَا مُحَمَّدُ، هَلْ لَكَ أَنْ تَبِيعَنِي تَمْرًا مَعْلُومًا مِنْ حَائِط بني فُلان إِلَى أَجَلِ كَذَا وَكَذَا ؟... فَقَالَ زَيْدُ بن سَعْنَةَ: فَلَمَّا كَانَ قَبْلَ مَحَلِّ الأَجَلِ بِيَوْمَيْنِ أَوْ ثَلاثٍ، أَتَيْتُهُ فَأَخَذْتُ بِمَجَامِعِ قَمِيصِه وَرِدَائِه، وَنَظَرْتُ إِلَيْه

ومن أشهر تطبيقات العدالة مع الرعايا غير المسلمين قصة قبطي مصر.[1]

ولا أدل على تحقيق العدالة مع الجميع من شمول ما يعرف بالضمان الاجتماعي للرعايا غير المسلمين؛ إنصافاً لهم وحفظاً لإنسانيتهم من ذلك أن عُمَرَ ﷺ مَرَّ بِبَابِ قَوْمٍ وَعَلَيْهِ شَيْخٌ يَهُودِيٌّ يَسْأَلُ وكان كَبِيْر السن ضَرِيْر الْبَصَرِ، قَالَ: فَمَا أَلْجَأَكَ إِلَى مَا أَرَى ؟ قَالَ: الْجِزْيَةَ وَالْحَاجَةُ وَالسِّنُّ. قَالَ: فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ وَذَهَبَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ فَرَضَخَ لَهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الْمَنْزِلِ. ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى خَازِنِ بَيْتِ الْمَالِ؛ فَقَالَ: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثُمَّ نخذله عند الهرم. كما أمر أن من لم يطق الجزية خففوا عنه، ومن عجز فأعينوه.[2]

بِوَجْهٍ غَلِيظ، فَقُلْتُ لَهُ: أَلا تَقْضِيَنِي يَا مُحَمَّدُ حَقِّي ؟ فَوَاللَّه مَا عَلِمْتُكُمْ بني عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَمَطْلٌ، وَلَقَدْ كَانَ لِي بِمُخَالَطَتِكُمْ عِلْمٌ، وَنَظَرْتُ إِلَى عُمَرَ، وَإِذَا عَيْنَاهُ تَدُورَانِ فِي وَجْهِهِ كَالْفَلَكِ الْمُسْتَدِيرِ، ثُمَّ رَمَانِي بِبَصَرِهِ، فَقَالَ: يَا عَدُوَّ اللَّه أَتَقُولُ لِرَسُولِ اللَّه ﷺ مَا أَسْمَعُ، وَتَصْنَعُ بِهِ مَا أَرَى، فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَوْلا مَا أُحَاذِرُ فَوْتَهُ لَضَرَبْتُ بِسَيْفِي رَأْسَكَ، وَرَسُولُ اللَّه ﷺ يَنْظُرُ إِلَى عُمَرَ فِي سُكُونٍ وتُؤَدَةٍ ، ثُمَّ قَالَ: يَا عُمَرُ، أَنَا وَهُوَ كُنَّا أَحْوَجَ إِلَى غَيْرِ هَذَا، أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الأَدَاءِ، وتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التِّبَاعَةِ، اذْهَبْ بِهِ يَا عُمَرُ وأَعْطِهِ حَقَّهُ وَزِدْهُ عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ مَكَانَ مَا رَوَّعْتَهُ، قَالَ زَيْدٌ: فَذَهَبَ بِي عُمَرُ ﷺ، فَأَعْطَانِي حَقِّي، وَزَادَنِي عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ الزِّيَادَةُ يَا عُمَرُ ؟ فَقَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّه ﷺ أَنْ أَزِيدَكَ مَكَانَ مَا رَوَّعْتُكَ، قُلْتُ: وتَعْرِفُنِي يَا عُمَرُ ؟ قَالَ: لا، مَنْ أَنْتَ ؟ قُلْتُ: أَنَا زَيْدُ بن سَعْنَةَ،قَالَ: الْحَبْرُ، قُلْتُ: الْحَبْرُ، قَالَ: فَمَا دَعَاكَ أَنْ فَعَلْتَ بِرَسُولِ اللَّه ﷺ مَا فَعَلْتَ وَقُلْتَ لَهُ مَا قُلْتَ ؟ قُلْتُ: يَا عُمَرُ، لَمْ تَكُنْ مِنْ عَلامَاتِ النُّبُوَّةِ... فَأُشْهِدُكَ يَا عُمَرُ أَنِّي قَدْ رَضِيتُ بِاللَّه رَبًّا وَبِالإِسْلامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَأُشْهِدُكَ أَنَّ شَطْرَ مَالِي وَإِنِّي أَكْثَرُهَا مَالا صَدَقَةٌ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ... فَرَجَعَ عُمَرُ وَزَيْدٌ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ، فَقَالَ زَيْدٌ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. وَآمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ وَبَايَعَهُ وَشَهِدَ مَعَهُ مَشَاهِدَ كَثِيرَةً، ثُمَّ تُوُفِّيَ زَيْدٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ مُقْبِلا غَيْرَ مُدْبِرٍ». المستدرك على المستدرك على الصحيحين. (6547). (700/3) وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو من غرر الحديث. المعجم الكبير للطبراني (5147) (222/5). وقال الهيثمي: رجاله ثقات مجمع الزوائد (240/8).

[1]- حيث أمر الفاروق ﷺ بالقصاص وأعطى الرجل عصاه قائلاً له: اضرب ابن الأكرمين ملتفتاً إلى واليه قائلاً المقولة التي ذاعت في الآلق: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً. والأمر العجيب أن القصاص من مسلم لمسلم ولا من عربي لعربي فيقول الناس عدل بل من قبطي لعربي ومن نصراني لمسلم. واقعنا المعاصر (ص70).

[2]- الخراج لأبي يوسف (ص126) الأموال لأبي عبيد (163/1) تاريخ دمشق (178/1). وقال عمر ﷺ: الفقراء هم المسلمون، وهذا أي السائل اليهودي - من المساكين من أهل الكتاب. الخراج (ص126). وروي عنه أنه قال في قوله تعالى: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ هم زمنى أهل الكتاب. تفسير القرطبي (151/8) وقال عكرمة: لا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين، إنما المساكين مساكين أهل الكتاب. جامع البيان في تأويل القرآن (308/14).

وقد جاء في كتاب خالد بن الوليد ﷺ لأهل الحيرة: وأيُما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام.[1]

الأساس الرابع السلم العالمي:

يشكل السلم العالمي الخارجي والداخلي جناحي طائر وأي خلل يحدث في أحدهما يؤثر في الآخر وقد عمل الإسلام على تحقيق السلم بشقيه؛ ليعم الأمن ويتحقق الأمان في العالم كله.

السلم الخارجي:

حمل الإسلام إلى العالم رسالة سلام فحقق السلم ونشر الأمن وحض على العلم ودعا إلى الفضيلة وأقام حضارة وبنى مدنية [2] فأمر الله ﷻ بالجنوح إلى السلم: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[الأنفال61]؛ لأن القتال ليس أمراً حسناً لذاته: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾[الأحزاب25]. ولا مرغوباً فيه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾[البقرة216] وإنما شُرع لرد العدوان: ﴿وَقَاتِلُوا

---

[1]- الخراج (ص144). كما أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عامله على البصرة عدي بن أرطأة: انظر من قبلك من أهل الذمة، من قد كبرت سنه وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب، فأجرِ عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه. الأموال (170/1).

قال القرافي: وأَمَّا مَا أُمِرَ بِهِ مِنْ بِرِّهِمْ وَمِنْ غَيْرِ مَوَدَّةٍ بَاطِنِيَّةٍ فَالرِّفْقُ بِضَعِيفِهِمْ وَسَدُّ خُلَّةِ فَقِيرِهِمْ وَإِطْعَامُ جَائِعِهِمْ وَإِكْسَاءُ عَارِيهِمْ وَلِينُ الْقَوْلِ لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ اللُّطْفِ لَهُمْ وَالرَّحْمَةِ لَا عَلَى سَبِيلِ الْخَوْفِ وَالذِّلَّةِ وَاحْتِمَالِ إذَايَتِهِمْ فِي الْجِوَارِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى إزَالَتِهِ لُطْفًا مِنَّا بِهِمْ لَا خَوْفًا وَتَعْظِيمًا وَالدُّعَاءُ لَهُمْ بِالْهِدَايَةِ وَأَنْ يُجْعَلُوا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَنَصِيحَتُهُمْ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَحِفْظُ غَيْبَتِهِمْ إذَا تَعَرَّضَ أَحَدٌ لِأَذِيَّتِهِمْ وَصَوْنُ أَمْوَالِهِمْ وَعِيَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ وَجَمِيعِ حُقُوقِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ وَأَنْ يُعَانُوا عَلَى دَفْعِ الظُّلْمِ عَنْهُمْ وَإِيصَالُهُمْ لِجَمِيعِ حُقُوقِهِمْ. الفروق (29/3).

[2]- اعترف المنصفون بمدى إسهام المسلمين في التقدم العلمي والحضاري ولم تكن الغاية قتل الشعوب أو نهب الثروات أو استعباد البشر من ذلك ما قاله الكاتب الفرنسي (أناتول فرانس) في كتابه (الحياة الجميلة): أسوأ يوم في التاريخ هو يوم معركة (بواتييه) عندما تراجع العلم والفن والحضارة العربية أمام بربرية الفرنجة، ألا ليت شارل مارتل قطعت يده ولم ينتصر على القائد الإسلامي عبد الرحمن الغافقي إن انتصاره عليه أخر المدنية عدة قرون إلى الوراء. أجنحة المكر الثلاثة (ص165). وقال **(هنري دي شاميون)** تحت عنوان (الانتصار الهمجي على العرب): لولا انتصار جيش (شارل مارتل) الهمجي على العرب في فرنسا في معركة (تور) على القائد الإسلامي (عبدالرحمن الغافقي) لما وقعت فرنسا في ظلمات العصور الوسطى ولما أصيبت بفظائعها ولما كابدت المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب الديني ولولا ذلك الانتصار البربري لنجت إسبانيا من وصمة محاكم التفتيش، ولما تأخر سير المدنية ثمانية قرون بينما كنا مثال الهمجية. كتاب دفاع عن الإسلام للمستشرقة الإيطالية (لورا فيشيا فاغليري). نقلاً من كتاب: قالوا عن نبي الإسلام والإسلام (ص 38).

في سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة190] ورفع الظلم: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[الحج39 -40] وإخماد الفتن: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة193]. وما أرسل الرسول ﷺ إلا رحمة العالمين فحينما مر سعد بن عبادة ﷺ بأبي سفيان ﷺ يوم فتح مكة قال: اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشاً رد عليه رسول الله ﷺ: اليوم يوم المرحمة اليوم أعز الله فيه قريشاً.[1] وقال ﷺ لأهل مكة يوم الفتح: اذهبوا فأنتم طلقاء.

وأرسل الرسول ﷺ الرسل وبعث السفراء إلى ملوك البلدان المجاورة وأمرائها؛ لإقامة علاقات حسن جوار وأقام عهد أمان مع القبائل المسالمة وقال عن حلف الفُضُول: «شَهِدْت في دار عبد اللّه بن جُدعان حِلْفاً لو دُعيت إلى مِثْله في الإسلام لأجبْتُ» [2] واستقبل الوفود وهاجر عدد من أصحابه إلى الحبشة لما علمه من عدالة النجاشي وكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِذَا بَعَثَ جُيُوشَهُ قَالَ: «اخْرُجُوا بِسْمِ اللَّهِ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ لَا تَغْدِرُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ وَلَا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ».[3] ولم يتعرضوا لغير المقاتلين من النساء والأطفال والرهبان قال ول ديورانت: لم

---

[1]- كنز العمال (295/7).

[2] - وسُمِّي به تَشْبيها بِحِلْف كان قديماً بمكة أيَّام جُرْهُم على التَّناصُف والأخْذ للضعيف من القوي وللغَرِيب من القاطِن قام به رجال من جُرْهُم كُلُّهم يُسَمَّى الفَضْل. النهاية في غريب الحديث والأثر (878/3). قَالَ الزهري: كَانَ شَأْن حلف الفضول أن رجلاً من بني زبيد قدم مَكَّة مُعْتَمِرًا فِي الْجَاهِلِيَّة وَمَعَهُ تِجَارَة لَهُ فاشتراها مِنْهُ رجل من بني سهم فأواها إِلَى بَيْته ثمَّ تغيب فابتغى الزبيديُّ متَاعه فَلم يقدر عَلَيْهِ فجَاء إِلَى بني سهم يستعديهم عَلَيْهِ فأغلظوا عَلَيْهِ... فَلَمَّا رأى ذَلِك أشرف على أبي قبيس حِين أخذت قُرَيْش مجالسها ثمَّ قَالَ بِأَعْلَى صَوته:

يَا آلَ فِهْرٍ لِمَظْلُومٍ بِضَاعَتَهُ ... بِبَطْنِ مَكَّةَ نَائِي الْأَهْلِ وَالنَّفَرِ
وَمُحْرِمٍ أَشْعَثٍ لَمْ يَقْضِ عُمْرَتَهُ ... أَمْسَى يُنَاشِدُ حَوْلَ الْحِجْرِ وَالْحَجَرِ
هَلْ مُخْفِرٌ مِنْ بَنِي سَهْمٍ يَقُولُ لَهُمْ .... هَلْ كَانَ فِينَا حَلَالًا مَالُ مُعْتَمِرِ
إِنَّ الْحَرَامَ لِمَنْ تَمَّتْ حَرَامَتُهُ ... وَلَا حَرَامَ لِثَوْبِ الْفَاجِرِ الْغُدُرِ

فأعظمت قُرَيْش ذَلِك فَاجْتمعُوا فِي دَار عبد الله بن جدعَان وصنع لَهُم يَوْمئِذٍ طَعَاماً كثيراً وَكَانَ رَسُول الله ﷺ يَوْمئِذٍ مَعَهم قبل أَن يُوحى إِلَيْهِ وَهُوَ ابْن خمس وَعشْرين سنة فاجتمعت بَنو هَاشم وَأسد وزهرة وتيم وَكَانَ الَّذِي تعاقد عَلَيْهِ الْقَوْم وتحالفوا: أَن لَا يظلم بِمَكَّة غَرِيب وَلَا قريب وَلَا حر وَلَا عبد إِلا كَانُوا مَعَه حَتَّى يَأْخُذُوا لَهُ بِحقِّهِ ويردوا إِلَيْهِ مظلمته من أنفسهم وَمن غَيرهم. أخبار مكة للفاكهي (190/5 -191) شرح مشكل الآثار (219/15).

[3] - المسند عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ (2728)(461/4). مسند أبي يعلى الموصلي(2549) (422/4) قال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني في الكبير والأوسط إلا أنه قال فيه: «ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا شيخاً» وفي رجال البزار: إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة وثقه أحمد وضعفه الجمهور، وبقية رجال البزار رجال الصحيح.. مجمع الزوائد (5 /381).

يكونوا في حروبهم همجاً متوحشين، انظر إلى ما أوصاهم به أبو بكر.[1] ولم يُشرِّع الإسلام حرب إبادة أو اتباع سياسة الأرض المحروقة [2] بل الأمر عكس ذلك تماماً ففقد أوصى رسول الله ﷺ بأهل مصر قال: «إذا فُتِحَتْ مِصْرُ فاسْتَوْصُوا بالقِبْطِ خَيْراً فإنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِماً» يعني أن أم إسماعيل كانت منهم.[3] وسمى القرآن الكريم الصلح فتحاً: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾[الفتح1] فبعد أن قفل المسلمون من صلح الحديبية نَزَلَتْ سُورَةُ الْفَتْحِ فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَفَتْحٌ هُوَ ؟ قَالَ نَعَمْ فَطَابَتْ نَفْسُهُ وَرَجَعَ ».[4] قَالَ الْبَرَاءُ بن عازب ﷺ: «تَعُدُّونَ أَنْتُمُ الْفَتْحَ فَتْحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحاً، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ».[5] ولا يهدف الإسلام إلى إقامة عداوة أو الاستمرار فيها. قال ﷻ: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة7].[6] كما أنه لم يعلن حرباً دائمة إلا على الشيطان: ﴿إِنَّ

---

[1]- قصة الحضارة (418/22). كانت وصية أبي بكر ﷺ لجيش أسامة ﷺ: يا أيها الناس قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له. تاريخ الأمم والملوك (246/2).

[2]- هذا بخلاف **ما شُرِّع في الكتاب المقدس**؛ فأهل الشعوب البعيدة التي يصعب عليهم سكناها تسبى نساؤهم وذرياتهم وأموالهم أما أهل الشعوب القريبة فيبادون جميعاً جاء في الإصحاح العشرين من سفر التثنية: وإذا تقدَّمْتَ إلى مدينة لتقاتلها فادْعُها أولاً إلى السلم فإذا أجابتك إلى السلم وفتحت لك فجميع الشعب الذين فيها يكونون لك تحت الجزية ويتعبدون لك وإن لم تسالمك بل حاربتك فحاصَرْتَها وأسلمها الرب إلهك إلى يدك فاضرب **كل ذَكَرٍ بحدّ السيف** وأما النساء والأطفال وذوات الأربع وجميع ما في المدينة من غنيمة **فاغتنمها لنفسك** وكُلْ غنيمةَ أعدائك التي أعطاكها الرب إلهك هكذا تصنع بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن أولئك الأمم هنا. وأما مدن أولئك الأمم التي يعطيها لك الرب إلهك ميراثًا **فلا تستَبْقِ منها نسمة** بل أَبْسِلْهم إبسالاً. (1) سفر التثنية (10/20 - 17) وانظر: موسوعة الكتاب المقدس (332/1).

[3]- عن كعب بن مالك المستدرك وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجا ووافقه الذهبي (149/4). المعجم الكبير الطبراني (111) (61/19). وقال الهيثمي: رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح. مجمع الزوائد (1/10).

[4]- البخاري كتاب الخمس باب إثم من عاهد ثم غدر (3011) مسلم كتاب الجهاد والسير باب صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ فِي الْحُدَيْبِيَةِ. (4733)(175/5).

[5]- البخاري كتاب المغازي باب غزوة الحديبية (1525/4)(3919). وقال جابر ﷺ: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية. تفسير الطبري (202/22). وقال ابن مسعود ﷺ: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية. تفسير ابن كثير (325/7). وقال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام في قلوبهم وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير. كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (467/1).

[6]- قال ابن كثير: أي يجعل محبة بعد البِغْضَة، ومودة بعد النُّفرة، وألفة بعد الفرقة؛ لأنه القادر على الجمع بين الأشياء المتنافرة والمتباينة والمختلفة، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة، فتصبح مجتمعة متفقة، والله ﷻ يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأنابوا إلى ربهم وأسلموا له. روى ابن أبي حاتم: أن رسول الله ﷺ استعمل أبا سفيان بن حرب على بعض اليمن، فلما قبض

الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً ﴾[فاطر6] أما غيره فربما غدا أعداء الأمس أصدقاء اليوم: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾. ولم يسع إلى احتلال البلاد ونهب الثروات وطرد أهلها.[1]

ولم توجه حروب المسلمين إلى الشعوب بل إلى قوى البغي دفعاً للظلم: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ [2] وإزاحة الطواغيت:[3] ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.[4] خاصة القياصرة والأكاسرة؛ لتحقيق مبدأ حرية الاختيار لمن تبلغه رسالة الإسلام.[5]

رسول الله ﷺ أقبل فلقي ذا الخمار مرتداً، فقاتله، فكان أول من قاتل في الردة وجاهد عن الدين. تفسير ابن كثير بتصرف يسير (89/8).

[1]- وعندما صالح أبو عبيدة أهل بعلبك اشترطوا أن لا يدخل مدينتهم أحد من المسلمين وأن يقيم عامل أبي عبيدة خارج المدينة فقال أبو عبيدة ﷺ: لكم ذلك وما لنا في الدخول إلى مدينتكم من حاجة. فتوح الشام (143/1).

[2]- جهز رسول الله ﷺ جيش أسامة بن زيد ﷺ قُبيل وفاته للذهاب إلى جموع الروم في تخوم الشام؛ **لأنهم كانوا يتأهبون للانقضاض على المسلمين واستنصا شأفتهم** حيث أنفذه الخليفة الراشد أبو بكر ﷺ بعد توليه الخلافة. ومجموع ضحايا غزوات النبوة من الجانبين بلغت (386) (183) من المسلمين و(203) من المشركين. بينما بلغت ضحايا الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت عشرة ملايين الإسلام في عيون غربية (ص 16).

[3] - لمّا كان الخطاب الإلهي في الإسلام موجهاً إلى البشر جميعاً كان من حق البشرية أن تبلغها الدعوة إلى هذا المنهج الإلهي وألا تقف عقبة أو سلطة في وجه التبليغ بأي حال من الأحوال. ثم كان من حق البشرية كذلك أن يترك الناس بعد وصول الدعوة إليهم أحراراً في اعتناق هذا الدين؛ لا تصدهم عن اعتناقه عقبة أو سلطة. فإذا أبى فريق منهم أن يعتنقه بعد البيان، لم يكن له أن يصد الدعوة عن المضي في طريقها. وكان عليه أن يعطي من العهود ما يكفل لها الحرية والاطمئنان؛ وما يضمن للجماعة المسلمة المضي في طريق التبليغ بلا عدوان فإذا اعتنقها من هداهم الله إليها كان من حقهم ألا يفتنوا عنها بأي وسيلة من وسائل الفتنة لا بالأذى ولا بالإغراء ولا بإقامة أوضاع من شأنها صد الناس عن الهدى وتعويقهم عن الاستجابة. وكان من واجب الجماعة المسلمة أن تدفع عنهم بالقوة من يتعرض لهم بالأذى والفتنة. ضماناً لحرية العقيدة، وكفالة لأمن الذين هداهم الله، وإقراراً لمنهج الله في الحياة، وحماية للبشرية من الحرمان من ذلك الخير العام. في ظلال القرآن. (160/1).

[4] - قال مجاهد: "فإن انتهوا فلا عُدوان إلا على الظالمين" يقول: لا تقاتلوا إلا من قاتلكم. تفسير الطبري. (574/3). أما قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[التوبة29]. فهو خاص بالمحاربين لدار الإسلام من أهل الكتاب وليس ينصرف إلى المقيمين في الوطن الإسلامي. شبهات حول الإسلام محمد قطب (ص177). قال الشيخ الشعراوي تعني أن يؤدوها عن انكسار لا عن علو. التفسير (125/1).

[5] - ومما يدل على نبل مقصد رسالة الإسلام وصدقها أن بيان ذلك جاء على لسان جندي مغمور لم يعرف إلا من خلال ما أجاب به رستم قائد جيش الفرس في القادسية وهو ربعي بن عامرٍ وقد سأله: ما جاء بكم ؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب الله ﷻ ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه. تاريخ الأمم والملوك للطبري (401/2).

ولم يشن المسلمون حروباً دينية مقدسة لنشر الدين بالقوة أو قهر المخالفين بل أكثر البلاد الإسلامية لم تدخلها جيوش المسلمين ولم يقاتل المسلمون إلا للدفاع عن النفس أو حرية الاعتقاد أو الاختيار ولم يسجل التاريخ استعمال القوة أو الإجبار في اعتناق الإسلام.[1] وإن كثيراً من أهالي البلاد المفتوحة رحبوا بالفاتحين وناصروهم [2] قال شاهد العيان على الفتح الإسلامي لمصر الأسقف (يوحنا النقيوسي): إن الله الذي يصون الحق لم يهمل العالم وحكم على الظالمين ولم يرحمهم لتجرئهم عليه وردهم إلى يد الإسماعيليين العرب المسلمين - ثم نهض المسلمون وحازوا كـ مصر وكان هرقل حزيناً بسبب هزيمة جيوشه في مصر وكان عمرو بن العاص يقوى كل يوم في عمله ويأخذ الضرائب التي حددها ولم يأخذ شيئاً من مال الكنائس ولم يرتكب شيئاً ما من سلب أو نهب وحافظ على الكنائس طوال الأيام.[3] وقد شكلت مبادئ الإسلام وأخلاق المسلمين عامل جذب لاعتناق الإسلام قال أرنولد تحت عنوان طابع السيادة في الحضارة الإسلامية: كان المثل الأعلى الذي يهدف إلى أخوة المؤمنين كافة في الإسلام من العوامل القوية التي جذبت الناس بقوة نحو هذه العقيدة.[4]

---

[1] - قال **توماس أرنولد**: لكنا لم نسمع عن أية محاولة مدبرة **لإرغام** طوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن أي **اضطهاد منظم** قصد منه استئصال الدين المسيحي ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فرديناند وإيزابيلا دين الإسلام من إسبانيا أو التي جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستنتي مذهباً يعاقب عليه متبعوه في فرنسا أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين عن انكلترا مدة خمسين وثلاثمئة سنة وكانت الكنائس الشرقية في آسية قد اعتزلت انعزالاً تاماً عن سائر العالم المسيحي الذي لم يوجد في جميع أنحائه أحد يقف في جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين؛ ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت به سياسية الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم. الدعوة إلى الإسلام (ص 99).

[2] - ذهب المؤرخ الأسباني: إجناسيو أولاجي في كتابه (العرب لم يستعمروا أسبانيا): إلى أن المسلمين دخلوا اسبانيا بناء على دعوة من الأسبان لما رأوا تسامح المسلمين في شمال إفريقيا مقابل الظلم والتعصب الذي كانوا يعانون منه في عهد الملك (رودريك). هامش (الله ليس كذلك ص49).

[3] - تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي (ص201 و221) وانظر الإسلام في عيون غربية (ص16).

[4] - المرجع نفسه (ص94). قالت زجريد هونكه: لقد كان أتباع الملل الأخرى وبطبيعة الحال من النصارى واليهود هم الذين سعوا سعياً لاعتناق الإسلام والأخذ بحضارة الفاتحين حتى افتتنوا بها وشغفوا بحبها فتسموا بأسماء عربية ولبسوا لباساً عربياً وتعلموا اللسان العربي... لقد كانت الروعة الكاملة في أسلوب الحياة العربية والتمدن العربي والسمو والمروءة والجمال وباختصار: السحر الأصيل الذي تتميز به الحضارة العربية بغض النظر عن الكرم العربي والتسامح وسماحة النفس كانت هذه كلها قوة جذب لا تقاوم. لقد ساء ذلك الآباء الروحيين النصارى فقد شهود عيان في الأندلس لقوة جذب المد الروحي والفكري العربي الذي سقط ضحيته رعاياهم النصارى طوعاً وعن طيب خاطر يشهد بذلك أسقف قرطبة (ألكارو) الذي أخذ يجأر بشكواه بكلمات مؤثرة: (إن كثيراً من أبناء ديني يقرؤون أساطير العرب ويتدارسون كتابات المسلمين من الفلاسفة وعلماء الدين ليس

أما مقولة: أن الإسلام انتشر بحد السيف ما هي إلا فرية روجها من غاظه انتصار الإسلام أما المنصفون فقالوا عكس ذلك قال توماس أرنولد تحت عنوان أسباب تحول المسيحيين إلى الإسلام: وإذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسحيين في صدر الحكم الإسلامي ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيد من التصديق ومن ثم لم يكن بد من أن نلتمس بواعث أخرى غير ذلك الباعث الذي أوحى بالاضطهاد.[1] وقال ول ديورانت: لم يكن الأعداء يخيرون بين الإسلام والسيف، بل كان الخيار بين الإسلام والجزية والسيف.[2]

السلم الداخلي:

إن تحقق السلم الداخلي ضمان لتحقق السلم الخارجي فالدولة التي لا تقيم العدل بين رعاياها آيلة إلى السقوط فكل من له عقد ذمة[3] أو عهد أمان حقه مكفول [4] وقد دعا القرآن الكريم إلى مخاطبتهم بأحب الأسماء إليهم؛ لتأليفهم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا

ليدحضوها وإنما ليتقنوا اللغة العربية ويحسنوا التوسل بها... وأين نقع اليوم على النصراني من غير المتخصصين - الذي يقرأ التفاسير اللاتينية للإنجيل بل من الذي يدرس منهم حتى الأناجيل الأربعة ؟. الله ليس كذلك (ص41).

[1]- الدعوة إلى الإسلام (ص88). قال ابن القيم: وإنما دخل الناس في دينه ﷺ اختياراً لما تبين لهم أنه رسول الله حقاً فأهل اليمن كانوا على دين اليهودية أو أكثرهم كما قال ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب» وكذلك من أسلم من يهود المدينة وهم جماعة كثيرون لم يسلموا رغبة في الدنيا ولا رهبة من السيف بل أسلموا في حال حاجة المسلمين وكثرة أعدائهم فكان أحدهم يعادي أباه وأمه ويخرج من الدنيا رغبة في الإسلام لا لرياسة ولا مال بل ينخلع من الرياسة والمال ويتحمل أذى الكفار. هداية الحيارى بتصرف يسير (ص12-13).

[2]- قصة الحضارة (418/22).

[3] - اصطلاح أهل الذمة ليس عاراً ينبغي التخلص منه فهو من جنس العهد والعقد وقولهم هذا في ذمة فلان أي في عهده وعقده أي فألزمه بالعقد والميثاق.أحكام أهل الذمة. (873/2). وتفسر الذمة بالعهد وبالأمان وسمي المعاهد ذميا نسبة إلى الذمة بمعنى العهد. المصباح المنير (210/1).

[4] - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:« مَنْ قَتَلَ مُعَاهَداً لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا». البخاري كتاب الخمس بَاب إِثْمِ مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا بِغَيْرِ جُرْمٍ. (2995)(1155/3).

قال الطحاوي: فَإِذَا صَارَ ذِمِّيًّا حَرُمَ دَمُهُ وَمَالُهُ كَحُرْمَةِ دَمِ الْمُسْلِمِ وَمَالِ الْمُسْلِمِ . ثُمَّ رَأَيْنَا مَنْ سَرَقَ مِنْ مَالِ الذِّمِّيِّ مَا يَجِبُ فِيهِ الْقَطْعُ قُطِعَ كَمَا يُقْطَعُ فِي مَالِ الْمُسْلِمِ. شرح معاني الآثار (إِسَرَّيِلَ / قَالَبِتَايَقَمَعَ).

بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران64] [1] وأمر بحوراهم بالحسنى مع البدء بذكر المشتركات: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت46]. وأسس لهذا الحوار بعدم إصدار حكم سابق: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وأن كل فريق مؤاخذ بعمله مع نسبة الجرم إلى المسلمين دونهم إيناساً لهم كي يُقبلوا على الحوار: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ24 -25] وكان الرسول ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب ومخالفة المشركين فيما لم يؤمر به؛[2] لأنهم الأقرب من المشركين والدليل عليه فرح المسلمين بانتصار أهل الكتاب على أهل الشرك.[3]

ولم ينه القرآن الكريم إلا عن مودة المحاربين: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة8 -9].[4]

أما ما يثار من شبهة حول الجزية على الرعايا غير المسلمين أنها مكس مشين وذل مكين.

---

[1] - قال الفخر الرازي: خاطبهم ههنا بقوله تعالى: (يا أهلَ الكتاب) وهذا الاسم من أحسن الأسماء وأكمل الألقاب حيث جعلهم أهلاً لكتاب الله، فإن هذا اللقب يدل على أن قائله أراد المبالغة في تعظيم المخاطب وفي تطييب قلبه، وذلك إنما يقال عند عدول الإنسان مع خصمه عن طريقة اللجاج والنزاع إلى طريقة طلب الإنصاف. أما قوله تعالى: (إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا) فالمعنى هلموا إلى كلمة فيها إنصاف من بعضنا لبعض، لا ميل فيه لأحد على صاحبه، والسواء هو العدل والإنصاف. تفسير الرازي (246/4).

[2] - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَسْدِلُ شَعْرَهُ وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَفْرُقُونَ رُءُوسَهُمْ وَكَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَسْدِلُونَ رُءُوسَهُمْ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ فِيهِ بِشَيْءٍ ثُمَّ فَرَقَ النَّبِيُّ ﷺ رَأْسَهُ». البخاري كتاب المناقب باب صفة النبي ﷺ (3365)(1305/3). مسلم كتاب الفضائل باب في سدل النبي ﷺ شعر رأسه إلى جانبيه (2336) (1817/4).

[3]- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الم غُلِبَتْ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ قَالَ غُلِبَتْ وَغَلَبَتْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أَنْ يَظْهَرَ أَهْلُ فَارِسَ عَلَى الرُّومِ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ الْأَوْثَانِ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ يَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ...». الترمذي كتاب تفسير القرآن الكريم باب ومن سورة الروم وقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ (3193)(343/5) المسند (2495)(296/4).

[4] - قال ابن كثير: إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم العداوة، فقاتلوكم وأخرجوكم، وعاونوا على إخراجكم، ينهاكم الله عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم. ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. تفسير ابن كثير (91/8). قال عُرْوَةَ : أَخْبَرَتْنِي أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ ﷺ قَالَتْ: «أَتَتْنِي أُمِّي رَاغِبَةً فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ آصِلُهَا قَالَ نَعَمْ». قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾. البخاري كتاب الأدب باب صلة الوالد المشرك (5633) (2230/5).

وجوابها مما شهد به شاهد من أهلهم قال السير توماس أرنولد تحت عنوان الغرض من فرض الجزية وعلى من فُرضت: لم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين - كما يريدنا بعض الباحثين على الظن - لوناً من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة. وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش، في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين. ولما قَدَّم أهل الحيرة المال المتفق عليه، ذكروا صراحة أنهم دفعوا هذه الجزية على شريطة أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم.[1] كذلك حدث أن سجل خالد في المعاهدة التي أبرمها مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة قوله: فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا.[2]

والواقع خير شاهد وأصدق دليل: فبعد أن علم أبو عبيدة أن هرقل حشد جيشاً كبيراً لقتال المسلمين، كتب إلى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم برد ما جُبي من الجزية من هذه المدن، وكتب إلى الناس يقول: (إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم). فلما قالوا ذلك لهم، وردوا عليهم الأموال التي جبوها منهم قالوا: ردكم الله علينا، ونصركم عليهم فلو كانوا هم، لم يردوا علينا شيئاً، وأخذوا كل شيء بقي لنا.[3] وقد فرضت الجزية على القادرين من الذكور مقابل الخدمة العسكرية التي كانوا يُطالبون بها لو كانوا مسلمين، ومن الواضح أن أي جماعة مسيحية كانت تُعفى من أداء هذه الضريبة إذا ما دخلت في خدمة الجيش الإسلامي. وكانت الحال على هذا النحو مع قبيلة (الجراجمة) وهي مسيحية كانت تقيم بجوار أنطاكية، سالمت المسلمين وتعهدت أن تكون عوناً لهم، وأن تقاتل معهم في مغازيهم، على شريطة ألا تؤخذ بالجزية، وأن تعطى نصيبها من الغنائم.[4] ولما اندفعت الفتوح الإسلامية إلى شمال فارس سنة (22هـ) أبرم مثل هذا الحلف مع إحدى القبائل التي تقيم على حدود تلك البلاد، وأعفيت من أداء الجزية مقابل الخدمة العسكرية.[5]

---

[1] - تاريخ الأمم والملوك للطبري (321/2).

[2] - المرجع نفسه (319/2).

[3]- الخراج لأبي يوسف (ص139).

[4]- فتوح البلدان (189/1).

[5]- الدعوة إلى الإسلام (ص79). وقال آدم ميتز: كان أهل الذمة يدفعون الجزية، كل منهم بحسب قدرته، وكانت هذه الجزية أشبه بضريبة الدفاع الوطني، فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح، فلا يدفعها ذوو العاهات، ولا المترهبون، وأهل الصوامع إلا إذا كان لهم يسار. الحضارة الإسلامية (96/1). والجزية ليست بدعاً من الأمر فرضه الإسلام بل هي شرعة أقرها

الخاتمة:

إذا كان الإسلام قَبِل الآخر ووضع أسساً للتعايش معه وطُبق ذلك عملياً في العهود المختلفة فإن بعضاً من الآخر في كثير من الأحيان اقتصر على الشعارات بل في أحايين كثيرة كانت شعاراته تدعو إلى الإبادة والإهلاك كما أنه بمقدار ما يعرف الغرب عن أحولنا نجهل من أحواله فقد كانوا يرسلون من يستكشف حال المسلمين من جواسيس وإرساليَّات تبشيرية واستشراق؛ ليتعرفوا نقاط ضعف المسلمين؛ ليسهل عليهم الغزو العسكري ليبدأ بعده الغزو الفكري وقد دلت الحروب الأخيرة على مدى معرفتهم بأدق التفاصيل التي سهلت لهم الانتصار في تلك المعارك ولو كانت بوسائل غير مشروعة؛ لأن الغاية عندهم تبرر الوسيلة. وفي مقابل هذا جهلنا بهم يوازي معرفتهم بنا فما نعلمه عنهم إن هو إلا انفعالات وردود أفعال آنية على جرائم يقترفوها في حقنا كجذوة نار لا تكاد تشتعل حتى تخمد.

وبناء عليه فضلاً عن الإعداد الواجب اتخاذه فإن من مقتضيات التعايش مع الآخر أن تعرف ما عنده ثقافة وفكراً وتوجهات؛ ليتم على ضوئه تحديد أولويات التعايش ومقتضياته وهذا يستدعي توجيه الاهتمام إلى دراسة الآخر أيًّا كان وذلك بإقامة مراكز بحثية وإعداد كوادر علمية وإرسال بعثات استكشافية؛ لنعرف الآخر عن كثب ويعرفنا عن قرب؛ لأن الناس أعداء ما جهلوا.[1]

العهد القديم والجديد. موسوعة الكتاب المقدس (382/1) (165/4). ويذكر إنجيل متّى أن عيسى ﷺ سئل: أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا ؟ فقال لمن هذه الصورة والكتابة ؟ قالوا لقيصر. فقال لهم: أعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر، و ما لله لله. موسوعة الكتاب المقدس (174/4).

[1]- اهتم الرسول ﷺ والخلفاء من بعده بالتعريف بالإسلام والتعرف على الآخرين فأرسل رسول الله ﷺ الرسل وبعث الرسائل إلى ملوك الدول المجاورة وكان لدار الحكمة التي أنشأها المأمون دور كبير في ترجمة تراث الآخرين وما أحوجنا اليوم إلى من يُعرف بالإسلام ويتعرف ثقافات الآخرين مع الاهتمام بالترجمة من تراثنا وإليه وذلك بدل إجبار جميع الأفراد على تعلم لغات الآخرين على حساب اللغة العربية والعلوم الأساسية الأخرى؛ لأنه غير واجب فتعلمها فرض كفاية كما أنه غير ضروري لنهضة أمتنا؛ لأن الترجمة وإعداد مختصين يفيان بالغرض كما يعسر تعليمها للجميع فضلاً عن أن شيوعها وانتشارها بين مختلف الأوساط سيضعف الثقة بلغتنا وتراثنا والأمة التي تحترم نفسها تحمي لغتها ونحافظ على تراثها. وليست هذه دعوة إلى محاربة تعلم اللغات بل يجب إعداد ما يفي بالغرض من السبل والوسائل التي تحقق السمو والرفعة لهذه الأمة؛ لتعود إلى دورها الريادي في قيادة العالم إلى السلم العادل والتعايش الآمن.

المراجع

الإسلام في عيون غربية د.محمد عمارة دار الشروق ط/1/ (1425 -2005).

- أجنحة المكر الثلاثة عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني ط/8/ دار القلم دمشق.
- أحكام القرآن أبو بكر الجصاص، دار الفكر، دمشق.
- أحكام أهل الذمة لابن القيم دار ابن حزم بيروت ت: يوسف أحمد البكري ط/1/(1418 - 1997).
- أخبار مكة للفاكهي أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس المكي الفاكهي (ت272هـ) ت: د. عبد الملك دهيش دار خضر بيروت ط/2/ (1414).
- الله ليس كذلك زيغريد هونكة دار الشروق ط/2/ (1417 -1996).
- الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام كتاب الأموال، تأليف: أبو عبيد القاسم بن سلام، دار النشر: دار الفكر بيروت (1408 - 1988) ت: خليل محمد هراس.
- الإنجيل والصليب عبد الأحد داود (القاهرة، (1350هـ).
- تاريخ الأمم والملوك محمد بن جرير الطبري أبو جعفر دار الكتب العلمية بيروت ط/1/ (1407).
- تاريخ دمشق لابن عساكر ت: علي شيري دار الفكر دمشق.
- تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي(ص201 و221) ترجمة د. عمر صابر عبد الجليل القاهرة (2000)
- تفسير الشعراوي الشيخ محمد متولي شعراوي دار أخبار اليوم.
- التفسير الكبير فخر الدين الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية بيروت ط/1/ (1421 -2000)
- التفسير المنير أ.د. وهبة الزحيلي دار الفكر المعاصر دمشق (1418).
- جامع البيان في تأويل القرآن للطبري مؤسسة الرسالة ت: أحمد محمد شاكر ط/1/(1420 - 2000).
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي دار عالم الكتب، الرياض ت: هشام سمير البخاري (1423 -

(2003).

- الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ت: أحمد شاكر وآخرون.
- الجامع الصحيح، البخاري، ت: د. مصطفى البغا دار ابن كثير، دار اليمامة، ط/3/(1406هـ 1987م).
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أدم متز ترجمة د. محمد عبدالهادي أبو ريدة بيروت (1967).
- حضارة العرب غوستاف لوبون ترجمة:عادل زعيتر دار إحياء التراث العربي بيروت ط/3/ (1399 -1979).
- الدعوة إلى الإسلام توماس أرنولد مكتبة النهضة المصرية ط/3/ (1970).
- الخراج لأبي يوسف دار المعرفة بيروت.
- سنن أبي داود، دار الفكر، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد.
- سير أعلام النبلاء شمس الدين الذهبي مؤسسة الرسالة بيروت ط/9/(1413 - 1993).
- شرح معاني الآثار للطحاوي ت: محمد زهري النجار دار الكتب العلمية بيروت ط/1/ (1399).
- شرح مشكل الآثار للطحاوي مؤسسة الرسالة ت: شعيب الأرنؤوط ط/1/ (1415 -1494).
- شعب الإيمان، البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، (1410هـ)، ت: محمد السعيد بسيوني.
- صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، ت: محمد فؤاد عبد الباقي.
- طبقات ابن سعد دار صادر بيروت.
- المسند للإمام أحمد ت: شعيب الأرناؤط وآخرون مؤسسة الرسالة ط/2/ (1420 -1999).
- فتوح البلدان البلاذري لجنة البيان العربي القاهرة.
- الفروق للقرافي دار الكتب العلمية بيروت (1418 -1998).
- الفهرست : محمد بن إسحاق أبو الفرج النديم دار المعرفة بيروت،(1398 - 1978).
- في ظلال القرآن لسيد قطب دار الشروق القاهرة ط/10/(1405).
- قالوا عن الإسلام د. عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة (1999).
- قصة الحضارة، ول ديورانت، دار الجيل، بيروت.
- قضية البعث الإملامي المنهج والشروط وحيد الدين خان ترجمة محسن عثمان النحوي كراجعة عبد الحليم عويس دار الصحوة القاهرة (1405 -1964).

- الكامل في التاريخ لابن الأثير دار الكتب العلمية بيروت ت: عبد الله القاضي (1415).
- كشف المشكل من حديث الصحيحين أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، دار الوطن الرياض ت: علي حسين البواب. (1418 - 1997)
- مجمع الزوائد للهيثمي، دار الريان للتراث، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت (1407هـ).
- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة جمع وتحقيق د. محمد حميد الله آبادي دار النفائس بيروت ط/6/ (1407 -1987).
- مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ت: روحية النحاس، ومحمد مطيع، دار الفكر، ط/1/(1984).
- المستدرك للحاكم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط//1، ت: مصطفى عبد القادر عطا.
- المصباح المضيء في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد بن حديدة الأنصاري عالم الكتب بيروت ت: محمد عظيم الدين (1405).
- المصباح المنير أحمد بن محمد بن علي الفيومي دار الكتب العلمية بيروت.
- المعجم الكبير، الطبراني، مكتبة العلوم والحكم، ط/2/، الموصل، (1404هـ1983م)، ت: حمدي السلفي.
- موسوعة الكتاب المقدس شحادة بشير بلا.
- النهاية في غريب الأثر النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير الجزري، دار الكتب العلمية بيروت (1399هـ 1979م)، ت: طاهر أحمد الزاوى محمود محمد الطناحي.
- هداية الحيارى هِدَايَة الْحَيَارَى فِي أجْوِبَة اليهودِ والنَّصارى ابن قيم الجوزية دار الكتب العلمية بيروت.
- واقعنا المعاصر محمد قطب مكتبة رحاب الجزائر.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2009/7/14.